الخطاب النّقديّ المغاربي: الواقع والمأمول
ط.د. أحمّد شولاق. جامعة ابن خلدون –تيارت

مقدّمة:

لقد اقترنت نشأة النّقد الأدبيّ في المغرب العربيّ بجملة من التّحوّلات السّياسيّة والثّقافيّة أهمّها : حصول بلدان المغرب العربيّ على استقلالها كالمغرب وتونس سنة 1956 والجزائر 1962 ثمّ تشييد بنيّة ثقافيّة تحتيّة كإنشاء المدارس والجامعات والنّوادي الأدبيّة والثّقافيّة والصّحف والمجلّات ...والّتي ساهمت في فترة السّتينيّات في كلّ من المغرب وتونس وفي السّبعينيّات في الجزائر في انفتاح النّقد الأدبيّ انفتاحا غير مباشر (عن طريق النّقاد المشارقة) على المناهج النّقدية الغربيّة الحديثة (السّياقيّة) كالمنهج التّاريخيّ والاجتماعيّ والنّفسيّ ثم بصفةٍ مباشرةٍ (بلا وساطة مشرقيّة) على المناهج الحداثيّة النّسقيّة كالبنيويّة والأسلوبيّة والسّيميائيّة ،وهذا في بداية السّبعينيّات في كلّ من المغرب وتونس وفي الثّمانينيّات في الجزائر، وقد ساعد النّقاد المغاربيين على الاتّصال المباشر بالمرجعيّة الغربيّة إجادتهم للّغة الفرنسيّة لغة الموطن الأصليّ لنظريّات ومناهج النّقد الجديد.

وفي ظلّ هذه الهيمنة المطلقة للثّقافة الغربيّة على الخطاب النّقديّ المغاربيّ يسعى هذا الأخير إلى التّخفيف من حدّة هذه التّبعيّة عن طريق المساهمة في إنتاج المعرفة النّقديّة بدل الاكتفاء باستهلاكها فقط، وسنحاول في هذه المداخلة المتواضعة أن نجيب عن الأسئلة التّاليّة:

- كيف استقبل الخطاب النّقدي المغاربيّ المناهج النّقديّة الغربيّة؟ هل اكتفى النّقاد المغاربيّون بالتّمثل واستهلاك المعارف الذّاتيّة الوافدة أم أنّ لهم بصمتم الخاصّة في هذا المجال؟

- كيف يمكن للخطاب النّقديّ المغاربيّ التّأسيس لنظريّة نقديّة عربيّة في ظلّ هيمنة غربيّة مطلقة؟

2-واقع الخطاب النّقديّ المغاربيّ:

2-1-النّقد الأدبيّ في المغرب العربيّ: النّشأة والتّطوّر

قبل الخوض في كيفيّة تلقي الخطاب النّقدي المغاربيّ للمناهج النّقديّة الغربيّة آثرنا أن نعرّج أوّلًا على نشأة هذا الخطاب وتحوّلاته في المغرب العربيّ، واقتصرنا على ثلاثة بلدان منه هي : المغرب الأقصى الجزائر وتونس.

ففي المغرب الأقصى، تعود البداية الحقيقيّة والفعليّة للنّقد الأدبيّ المنهجيّ إلى فترة السّتينيّات من القرن الماضي، ولا يُمكن اعتبار ما قبل هذه الفترة نقدًا بأتمّ معنى الكلمة وهذا ما أعلنه النّاقد نجيب العوفي صراحةً حين قال :"قبل السّتينيّات من هذا القرن الآيل للأفول لم يكن في الإمكان الحديث عن مشهد نقديّ في المغرب واضح السّمات والمعالم داني القطوف والثّمار، ولم يكن ممكنًا بالأحرى حتّى الحديث عن نقد أدبيّ أو مشروع نقد أدبيّ بالدّلالات المعرفيّة والمنهجيّة العميقة لمصطلح نقد، بل غاية ما يمكن الحديث عنه في هذا الصّدد قبل إطلالة السّتينيّات هو جملة من المحاولات أو الخواطر النّقديّة الانطباعيّة اللّغويّة..."[1]، ويعزى السّبب إلى "عدم وجود مشهد إبداعيّ أو حركة إبداعيّة بمعنى الكلمة في هذه المرحلة الضّاربة في الزّمان"[2].

ويعود الفضل في نشأة النّقد الأدبيّ في المغرب الأقصى إلى الجامعة المغربيّة هذا الصّرح العلميّ التّكويني الذّي اضطلع بدوره المعرفيّ والمنهجيّ معًا بإضفاء صفة العلميّة والموضوعيّة على تلك المحاولات والخواطر النّقديّة الانطباعيّة اللّغويّة من خلال اطلاع الأساتذة والطّلبة على أغلب النّظريات والمناهج النّقديّة الحديثة ومفاهيمها المتعدّدة

[1] - نجيب العوفي، المشهد النّقديّ في المغرب مساراته وخياراته، مجلة فكر ونقد، المغرب، ع6، فبراير 1998، ص: 50.
[2] - مر، ن، ص: 50.

وتطبيقاتها المختلفة، وهذا يُمثّل مرحلة النّقد السّياقيّ في فترة السّتينيّات والّذي تزامن ظهوره مع تأسيس الجامعة المغربيّة بعد الاستقلال سنة 1956، ثمّ مرحلة النّقد النّسقيّ في منتصف السّبعينيّات عن طريق احتكاك النّقاد المغاربيّين بروّاد هذا النّقد بفرنسا من خلال الدّراسة أو التّرجمة.

ومن هنا فقد "تأسّست حركة نقديّة مغاربيّة لم تغفل عن مسايرة التّطور النّقديّ الحاصل، فعملت جاهدةً على تجاوز الدّرس النّقديّ الكلاسيكيّ ،وتخطّت بذلك الأحكام النّقديّة الانطباعيّة والقراءة السّطحيّة، فقد شهدت تطوّرًا ملحوظًا؛ حيث انفتحت على المناهج النّسقية في بداية السّبعينيّات، فكانت البحوث الجامعيّة والملتقيات والنّدوات العلميّة، وكذلك الكتب المتعلّقة بتحليل النّصوص كلّها تعتمد على مناهج لسانيّة حداثيّة حيث شكّلت حضورًا ملموسًا في أبحاثهم، ومن هذا المنطلق نجد تعدّد المناهج النّقديّة في استنطاق النّصوص الأدبيّة في المغرب الأقصى."[1]

في الواقع أنّ هناك دراسات كثيرة أرّخت للنّقد الأدبيّ بالمغرب الأقصى بدايةً بإرهاصاته وانتهاءً بتبلوّره وتشكّله، ومن هذه الدّراسات نذكر دراسة النّاقد محمّد عفيفي التّي قسّم فيها الحركة النّقديّة المغربيّة إلى ثلاثة أطوارٍ هي:- الطّور الأوّل(1900-1930): المدرسة الأندلسيّة التّقليديّة. – الطّور الثّاني(1930-1955) مدرسة الصّحافة الوطنيّة.- الطّور الثّالث(1956-1971) المدرسة الواقعيّة الاشتراكيّة، كما صنّف النّاقد الجزائريّ محمّد مصايف أعلام النّقد المغربيّ إلى ثلاثة تيّارات هي:- تيّار النّقد التّقليديّ: منهم عبد الله الجزاري، عبد السّلام العلوي، محمد عبّاس الفتّاح، عبد الله كنون...وتيّار النّقد التّأثريّ من بينهم: عبد المجيد بن جلّون، محمد التّازي، عبد الله الخطيب...وتيّار النّقد الواقعيّ من بينهم محمّد برادة، عبّاس الجراري، عبد الكريم غلاّب، عبد القادر الشّاوي، أمّا الباحث المغربيّ محمد أقضاض في مقال له جعل من النّقد البنيويّ معلمًا لتحديد المراحل التي مرّ

[1] - عبد الله ابراهيم: مدخل إلى المناهج النّقديّة الحديثة، المركز الثّقافيّ العربيّ، ط3، بيروت، 1996، ص:53.

بها النّقد المغربيّ وهي:-مرحلة النّقد ما قبل البنيويّ، -مرحلة النّقد البنيويّ- مرحلة النّقد ما بعد البنيويّ[1].

في حين أنّ النّاقد المغربيّ عبد الحميد عقّار يرى أنّ حركة النّقد المغربيّ الحديث انتقلت من الاستقراء الظّاهريّ والانطباعيّ للنّصوص في الفترة من العشرينيّات إلى الخمسينيّات من القرن العشرين المنصرم إلى التّجريب والتّنظير منذ السّبعينيّات إلى اليوم مرورًا بمرحلة تنويريّة امتدّت من نهاية العقد الخمسينيّ إلى بداية العقد السّبعينيّ."[2]

إنّ الدّراسات التّاريخيّة السّابقة تتّفق جميعها وعلى الرّغم من اختلاف خلفيّاتها ومرجعيّاتها على أنّ "النّقد الأدبيّ المغربيّ شهد مرحلتين:

أولاهما ما قبل الاستقلال (فترة الحماية)؛ وهي مرحلة التّأسيس والتّشكّل، وثانيهما ما بعد الاستقلال (فترة السيّادة)، وهي مرحلة التأصيل والتّجديد، والّتي انتقل فيها النّقد المغربيّ من الانطباعيّة إلى الواقعيّة، ومن ثمّ إلى البنيويّة والأسلوبيّة والسّيميائيّة ليصل إلى جماليّة التّلقي، مُتجاوزًا في ذلك كلّ ما له علاقة بالذّوق والمرجع ومنتهيًا عند النّص والقارئ أمّا اللاّفت للنّظر في هذه الكتابات –رغم تباينها- هو اتّفاقها على القطيعة مع النّقد العربيّ والأندلسيّ القديمين"[3].

كما لا يمكن أن نغفل دراسة النّاقد المغربيّ محمد خرماش للنّقد الأدبيّ الحديث بالمغرب الأقصى، والّتي حاول فيها رصد مساراته وتحوّلاته؛ إذ صنّف الباحث أهمّ المناهج النّقديّة الّتي عرفها النّقد الأدبيّ الحديث بالمغرب إلى قسمين أساسيّين: التّوجهات المنهجيّة التّقليديّة والتّوجّهات المنهجيّة الحديثة (التّجديديّة)، فشمل القسم الأول المنهج التّاريخيّ والمنهج التّأثريّ (الانطباعيّ)، وشمل القسم الثّاني المنهج الاجتماعيّ(الاتّجاه الواقعيّ) والمنهج البنيويّ التّكوينيّ[4].

---

[1] - يُنظر: عبد السّلام مرسلي: واقع الخطاب السّيميائيّ في النّقد المغاربيّ، أطروحة دكتوراه، كليّة الآداب واللّغات والفنون، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2015-2016، ص:24-25.

[2] - يُنظر: نجيب العوفي: المرجع السّابق، ص: 49.

[3] - عبد السّلام مرسلي: المرجع السّابق، ص:24.

[4] - يُنظر: محمّد خرماش: إشكاليّة المناهج في النّقد الأدبيّ المغربيّ المعاصر "التّوجّهات الثّقافيّة وتطوّر الفكر النّقديّ حتّى الثّمانينيّات"، الجزء الأول، مطبعة، أنفويرانت، ط1، المغرب، 2006، ص:132.

والمسار نفسه تقريبا مع فروقاتٍ طفيفةٍ اجتازه النّقد الأدبيّ في الجزائر؛ إذ أنّ البداية الفعليّة للنّقد المنهجيّ كانت في فترة السّتينيّات أي بعد الاستقلال، أمّا ما قبل هذه الفترة فكان مجرّد محاولاتٍ انطباعيّة عفويّة جزئيّة تُعنى بتصويب الأخطاء اللّغويّة والنّحويّة والصّرفيّة "محاولات قليلة وفقيرة متناثرة في بعض الصّحف والمجلّات، كان يدبجها بعض الكُتّاب أمثال: رمضان حمّود ومحمّد السّعيد الزّاهريّ ومحمّد البشير الإبراهيميّ وابن باديس وحمزة بوكوشة وأحمد بن ذياب وعبد الوهّاب بن منصور وأحمد رضا حوحو، وغيرهم من الأدباء والمشايخ الّذين لم نعرف واحدًا منهم جعل النّقد شغله الشّاغل"[1]، وفي هذا الصّدد يقول المفكّر أبو القاسم سعد الله في مقالٍ نُشر له في مجلة الآداب اللّبنانيّة سنة 1960 :"ليس هناك أدب متكامل يعيش مع مشاكلنا الذّهنيّة والعاطفيّة فكيف بعد هذا نحاول الحديث عن النّقد الأدبيّ، بينما النّقد والأدب صنوان يسند ويُكمّل أحدهما الآخر؟ ولكن ما دمنا نعترف بوجود محاولات في الأدب، فمن الحقّ أن نعترف كذلك بوجود محاولاتٍ أخرى في النّقد، إنّها مجرّد محاولات تتلاءم مع المستوى الفنيّ لإنتاجنا الأدبيّ"[2]

ويبدو هنا أنّ النّاقد الجزائريّ أبو القاسم سعد الله يتّفق مع النّاقد المغربيّ نجيب العوفي فيما ذهب إليه حين أثبت أنّ غياب الأدب النّاضج والمكتمل يؤدّي حتمًا إلى غياب النّقد المنهجيّ، لكن هناك من يعارضهما، إذ يرى النّاقد الجزائريّ عمّار زعموش:"أنّ تواجد النّقد لا يرتبط في أساسه بوجود الأدب إلاّ إذا قصدنا الجانب التّطبيقيّ منه فقط، فالنّقد في حقيقته أوسع من ذلك، وبالتّالي يُمكن له أن يسبق الإبداع ويتقدّمه، والعكس صحيح أيضًا ، ما دام لكلّ منهما دوره ومكانته في الحركة الثّقافيّة والفكريّة وفي بناء الحضارة".[3]

بعد الاستقلال وتحديدًا في النّصف الثّاني من عقد السّتينيّات وحتّى عقد السّبعينيّات يخوض النّقد المنهجيّ الجزائريّ أوّل تجاربه مع المناهج السّياقيّة بدءًا بالمنهج التّاريخيّ عند

[1] - يوسف وغليسي: النّقد الجزائريّ المعاصر من اللّانسويّة إلى الألسنيّة، إصدارات رابطة إبداع الثّقافيّة، د.ط، قسنطينة، 2002، ص:09

[2] - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائريّ الحديث، دار الرّائد للكتاب، ط5، الجزائر، 2007، ص:80.

[3] -عمّار زعموش: النّقد الأدبيّ المعاصر في الجزائر قضاياه واتّجاهاته، مطبوعات جامعة منتوري، د.ط، قسنطينة، 2000-2001، ص:137.

النّاقد أبي القاسم سعد الله في مقالاته التّعريفيّة بالأدب الجزائريّ والّتي نُشرت في مجلة الآداب اللبنانيّة لتُجمع لاحقًا في كتاب مُستقلّ وكتابه "محمّد العيد آل خليفة رائد الشّعر الجزائريّ الحديث" الّذي يُعدّ أوّل كتاب نقديّ، كما نجد المنهج التّاريخيّ عند النّاقدين عبد الله الرّكيبي وصالح خرفي في مؤلفاتهما النّقديّة الأولى وهي على التّوالي "تطوّر النّثر الجزائريّ الحديث" و" الشّعر الجزائريّ الحديث" وفي السّبعينيّات، وبعد اختيار البلاد الاشتراكيّة خيارًا اجتماعيًّا اقتصاديًّا كان لابدّ للأدباء والنّقاد أن يتبنّوا مقولات المنهج الاجتماعيّ خاصّة مفهوم الواقعيّة كي يربطوا الأدب بمعادله الموضوعيّ ،ويبحثوا عن مضمونه الاجتماعيّ، فظهر ذلك جليًّا في مؤلّفات النّاقد محمّد مصايف" دراسات في النّقد والأدب" و"الرّواية العربيّة الجزائريّة بين الواقعيّة والالتزام" و"النّثر الجزائريّ الحديث".

ثمّ المنهج النّفسيّ مع رائده في الجزائر النّاقد أحمد حيدوش في مؤلّفاته "الاتّجاه النّفسيّ في النّقد العربيّ الحديث" و"شعريّة المرأة وأنوثة القصيدة" وكذا النّاقدان عبدالقادر فيدوح وزين الدّين المختاري في كتابيهما على التّوالي" الاتّجاه النّفسيّ في نقد الشّعر العربيّ" و" المدخل إلى نظريّة النّقد النّفسيّ"[1]

بحلول عقد الثّمانينيّات يدخل النّقد الجزائريّ مرحلة جديدة تُعنى بالنّص ولا شيء سوى النّص إنّها مرحلة المناهج النّسقيّة كالبنيويّة والأسلوبيّة والسّيميائيّة؛ فالمنهج البنيويّ (السّوسيوبنائيّ) نجده في دراسات النّاقد عمر عيلان لروايات عبد الحميد بن هدوقة، والمنهج السّيميائيّ نجده حاضرًا في دراسة النّاقد عبد الملك مرتاض" ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائيّ تفكيكيّ لحكاية حمّال بغداد" وفي دراسات عبد الحميد بورايو (أب السّيميائيّات في الجزائر) ودراسات تلميذه رشيد بن مالك، أمّا المنهج الأسلوبيّ فتبنّاه النّاقد علي ملاحي في دراسته "الجملة الشّعرية في القصيد الجديد، مفهومها وخصائصها دراسة أسلوبيّة" و " المجرى الأسلوبيّ للمدلول الشّعريّ العربيّ المعاصر" ودراسة النّاقد نورالدّين السّد " الأسلوبيّة وتحليل الخطاب "[2]

[1] -يُنظر: رندي محمّد: المرجع السّابق ، ص: 101 ، 102، 103.

[2] - يُنظر: رندي محمّد: المرجع السّابق ، ص: 108، 111.

أمّا عن بدايات تشكّل النّقد التّونسيّ؛ فقد ارتبطت بالحركة الإصلاحيّة الّتي امتدّت من منتصف القرن التّاسع عشر إلى غاية النّصف الأوّل من القرن العشرين، وقد كان من أبرز مظاهرها الدّالة إنشاء المدارس الّتي كان لأساتذتها وخريجيها دورٌ بارزٌ في إرساء دعائم النّهضة الحديثة بالإضافة إلى إنشاء المطبعة الرّسميّة للبلاد التّونسيّة 1860 الّتي أسهمت في ازدهار الحركة الأدبيّة والفكريّة بفضل ما نشرته من مؤلّفات متنوّعة المجالات لعدد من رجال الفكر والأدب والإصلاح، كما كان لجريدة الرّائد التّونسيّ دور فاعل في التّعريف بالإبداعات الأدبيّة والنّقديّة والفكريّة، هذا ساهم في بروز أقلام مُبدعة أهمّها محمّد بيرم الخامس ومحمّد السّنوسي وخير الدّين التّونسيّ ومحمد بن خوجة وغيرهم[1].

لم يشذّ النّقد التّأسيسيّ في تونس عن نظيره في الجزائر والمغرب حين بدأ انطباعيًّا لغويًّا على يد ثلّة من الأدباء النّقاد الّذين لم يكن النّقد أكبر همّهم ومُنتهى غايتهم، نذكر منهم: عبد العزيز المسعودي وزين العابدين السنّوسي وحسن حسني عبد الوهّاب ومحمّد الحليويّ ومحمّد البشروش وأحمّد خير الدّين[2] ؛ إذ لم يحتكم هؤلاء الأدباء النّقاد إلى منهجٍ قائم بذاته له أسسه الواضحة ومعاييره الثّابتة ، وبهذا فإنّ «جلّ الفصول النّقديّة كانت تتمحوّر حول اللّغة العربيّة وطاقتها الإيمانيّة وقدرتها على مجاراة العصر"[3]

وفي فترة السّتينيّات يُدشّن النّقد التّونسيّ مرحلة النّقد المنهجيّ الّذي كان وليد ظهور الجامعة، والبداية طبعًا بالمناهج السّياقيّة، وتحديدًا بالمنهج التّاريخيّ مع النّقاد: محمّد صالح الجابري، فريد غازي ورشيد ذوادي، فالمنهج الاجتماعيّ مع جماعة الطّليعة الأدبيّة (الطّاهر الهمامي، عزّالدّين المدني، محمد صالح بن عمر، ..) وكذا النّقاد الحفناوي الماجري وعبد القادر بن الحاج نصر، وتوفيق بكّار مؤسّس النّقد التّونسيّ الحديث[4]

[1] - يُنظر: بوجمعة بوشوشة: النّقد الرّوائيّ في المغرب العربيّ "إشكاليّة المفاهيم وأجناسيّة الرّواية"، مؤسّسة الانتشار العربيّ، ط1، بيروت، لبنان، 2012، ص: 20، 22.

[2] - يُنظر رندي محمّد: المرجع السّابق ، ص: 98.

[3] - مجموعة من الباحثين : تاريخ الأدب التّونسيّ الحديث والمعاصر، المجمع التّونسيّ للعلوم والآداب والفنون، ط1، بيت الحكمة ، قرطاج، تونس، 1993 ، ص:46.

[4] - يُنظر رندي محمّد، المرجع السّابق، ص: 104، 105.

لينتقل بعدها في فترة السّبعينيّات إلى المناهج النّسقيّة بداية بالمنهج البنيويّ مع النّاقد حسين الواد في دراسته الموسومة بـ « البنيّة القصصيّة في رسالة الغفران » والبنيويّة التّكوينيّة مع النّاقد الطّاهر لبيب في دراسته تحليل سوسيولوجيا العزل العربيّ"، فالمنهج السّيميائيّ مع على العشى في دراسته تحليل سيميائيّ للجزء الأول من كتاب الأيّام لطه حسين والنّاقدين جميل شاكر وسمير المرزوقي، ثم المنهج الأسلوبيّ مع النّاقدين عبد السّلام المسدي ومحمد الهادي الطرابلسي في مؤلفيهما « الأسلوبيّة والأسلوب » و « قضايا الأدب: مظاهر التّفكير الأسلوبيّ عندالعرب.»[2]

2-2-استقبال المناهج النّقديّة العربيّة في الخطاب النّقديّ المغاربيّ:

عرف الخطاب النّقديّ المغاربيّ في الرّبع الأخير من القرن العشرين انفتاحًا مباشرًا على المناهج النّقديّة الغربيّة سواءً عن طريق ترجمة المؤلّفات النّقديّة الأجنبيّة أو التّتلمذ على يد أساطين النّقد الغربيّ في جامعة السّوربون بفرنسا، وقد كان هذا الانفتاح بدافع الخروج من حالة الجمود والخمود الّتي سيطرت على العقل العربيّ ردحًا من الزّمن ورغبةً في مواكبة الآخر المتطوّر الّذي سحر النّفوس وأسر القلوب بتطوّره وتقدّمه، فكان «لجوءنا إلى مناهج نقديّة ظهرت في بيئة غير بيئتنا، ووجدت الحلّ لمشاكل تختلف عن مشاكلنا يعود في أساسه إلى الرّغبة في اللّحاق بالرّكب الحضاريّ»[1] ، وهكذا ومن تلك اللّحظة والخطاب النّقديّ المغاربيّ ينهل ما جدّ و استجدّ من نظريات ومناهج نقديّة من مظانها الأصليّة حتّى غدا هذا الخطاب أسير المحاولات والتّطورات الّتي تطرأ على مستوى النّقد الغربيّ ، فقد"ظلّ المسار النّقديّ الغربيّ هو الّذي يُوجّه النّقد الأدبيّ العربيّ ويفرض عليه في كلّ مرحلةٍ إبدالاته الخاصّة والمتجدّدة"[2] .

[1] - سيّد بحراوي : البحث عن المنهج في النّقد العربيّ الحديث، دار الشّرقيات ، ط1 ، القاهرة، مصر ، 1993، ص: 105.

[2] - سعيد يقطين وفيصل دراج : آفاق نقد عربيّ معاصر، دار الفكر، ط1، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، 2003 ، ص: 30.

الأمر الّذي جعل النّقد العربيّ عمومًا نسخةً شائهةً للنّقد الغربيّ ورجع صدًى له إلى درجة أن «أصبح النّقد عندنا نقد غربيّ كُتب بحروفٍ عربيّة"[1]

يغيب عنه الابتكار والإبداع ويحضر فيه التّقليد والاتّباع، فـ "ما حدث في المشهد النّقدي هو اتساع دائرة المشاركة فعلًا، ولكن على مستوى الاستهلاك وإعادة الإنتاج أكثر منه على مستوى الإنتاج الخلّاق أو المستوعب للاختلاف الثّقافيّ"[2] فواقع الخطاب النّقديّ المغاربيّ اليوم هو تبعيّةٌ مطلقةٌ وهيمنةٌ مطبقةٌ للنّقد الغربيّ؛ إذ تهافت النّقاد المغاربيّون على المناهج النّقدية الغربيّة بلا وعي بالخلفيّات المعرفيّة والمرجعيّات الفلسفيّة الّتي تقبع وراءها وبحجج واهيّة من قبيل "عالميّة النّظريّات أو الموروث الإنسانيّ المشترك " أو المناهج المتاحة للجميع" أو بدعوى أنها نتاج علميّ متجاوز لمؤثّرات الإيديولوجيا"[3].

ومن النّقاد المغاربيّين الّذين تبنّوا مقولات النّقد الغربيّ الحديث النّاقد المغربيّ محمّد بنيس في دراسته (ظاهرة الشّعر المعاصر في المغرب، مقاربة ينيويّة تكوينيّة)[4] وعلى طرف النّقيض من هذا الطّرف المشايع للنّقد الغربيّ يقبع ثلّة من النّقاد آثروا الانغلاق في التّراث العربيّ القديم ،ورفض المناهج الغربيّة جملةً وتفصيلًا لأنّهم يرون فيها مظهرًا من مظاهر الغزو الثّقافيّ، « يحدوهم في ذلك واقع النّقد العربيّ وما أسفر عنه التّأثر بالمنهجيّة الغربيّة من فوضى فكريّة ونقديّة عميقة (...) وواقع النّقد الغربيّ ذاته غير المستقرّ على حال، وغير البريء من فلسفات شتّى لا تتطابق مع البيئة والمجتمع والفلسفة العربيّة.»[5]

---

[1] - حبيب مونسى: القراءة والحداثة مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربيّة ، اتّحاد الكتّاب العرب، ط1، دمشق، 2000، ص119.

[2] - سعد البازعي: استقبال الآخر العرب في النّقد العربيّ الحديث، المركز الثّقافي العربيّ، ط1، الدّار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 2004، ص25.

[3]-مر.ن، ص:21.

[4] - يُنظر علي حسين يوسف: النّقد العربيّ المعاصر دراسة في المنهج والإجراء، الدّار المنهجيّة للنّشر والتّوزيع، ط1، عمّان،2016، ص:36.

[5] - حمزة بسو: الموقف النّقديّ العربيّ من إفرازات الحداثة الغربيّة (المناهج النّقديّة)، مجلة آفاق للعلوم، الجلفة، ع9، 2017، ص: 227.

وقد تراوح رفض النّقاد للمناهج الغربيّة بين من رفضها رفضًا مطلقًا وبين من رفض منهجًا بعينه لعدم توافقه مع رؤاه أو توجّهاته الإيديولوجيّة والفكريّة، فتهيّأ لنقده ورد مزاعمه ونسف أسسه ومقولاته، وهو حال عديد النّقاد أمثال: نجيب العوفي في بعض كتبه على الأقلّ[1].

كما كان لنقّاد مغاربيّين آخرين، - وهم الغالبيّة - مواقفُ وسطيّةٌ متّزنة من الحداثة الغربيّة، إذ حاولوا أن يأخذوا من التّراث أحسنه، ومن الحداثة أفضلها من أجل أن يُذيبوا هذه في تلك وذاك في هذه، وذلك ابتغاء أن يبنوا بهما شيئًا يكون مشتملًا على أطراف من الأصالة، وعلى عناصر من الحداثة جميعها "[2] ذلك لأنّ أولئك النّقاد الوسطيّين أدركوا أنّ الانفتاح المطلق على الآخر يقود إلى التّعسف ، والانغلاق المطلق يقود إلى التّكلف بينما يقود التّفاعل الواعي إلى التّكيّف ، وهذا هو المطلوب المأمول."[3]

ومن النّقاد المغاربيّين الّذين تبنّوا هذا الاتجاه التّوفيقيّ الّذي مكّنهم من الاطّلاع على جواهر التّراث الأدبيّة والنّقديّة الخالدة واستيعاب النّظريّات النّقديّة الغربيّة، ومن ثمّ سعوا إلى تكييفها مع معطيات البيئة والثّقافة والخصوصيّة العربيّة ، نذكر منهم : عبد الفتّاح كيليطو، محمّد مفتاح، حميد لحميداني ومحمّد العمري من المغرب، وعبد السّلام المسدي وحمّادي صمود من تونس وعبد الملك مرتاض من الجزائر.

3-آفاق الخطاب النّقديّ المغاربيّ والمأمول منه:

3-1- لماذا التّأصيل ؟

هجمت المناهج النّقديّة المعاصرة على الأدب والنّقد العربيّ عمومًا دفعةً واحدةً وبفواصل زمنيّة قصيرة، فتسابق نقادنا إلى استعارتها دون وعي بحمولاتها الفكريّة والفلسفيّة غير البريئة الّتي تقبع وراءها وتتربّص وتترصّد ثقافتنا العربيّة الأصيلة لتبثّ فيها سمومها، وراحوا يلوون بها عنق النّص العربيّ ويُخضعونه لها خضوعًا ويطبّقونها عليه وبشكل تعسّفي فوقع التّشويش والاضطراب، وحدثت الغربة غربة النّص العربيّ بين ظهراني

[1] - يُنظر: حمزة بسو: الموقف النّقديّ العربيّ من إفرازات الحداثة الغربيّة (المناهج النّقديّة)، ص: 228.

[2] - عبد الملك مرتاض: مائة قضيّة وقضيّة، دار هومة، د.ط ، الجزائر، 2012 ، ص: 119

[3] - حمزة بسو: المرجع السّابق، ص:230.

أهله، ولأنّ المجال لم يتّسع ولم يسعف النّاقد العربيّ لتمييز الطيّب من الخبيث، إن صحّ القول من هذه المناهج النّقديّة، بسبب تدفّقها كالتّيار الجارف الّذي لا يُبقي ولا يذر، يجرف كل من يسبح ضدّه ، ومن هنا كان لا مناص من مجاراته والارتماء في أحضان الآخر الّذي صار في عقر دارنا يفرض نفسه علينا فرضًا، ولما انحسر التّيار وبدأ العقل العربيّ يُفيق من صدمته أدرك فداحة الموقف حينما أراد استنبات مناهج نقديّة غربيّة غريبة عن تربة عربيّة تمتاز بخصوصيّات خاصّة من قيّم أصيلة وثوابت راسخة متجذّرة، من هنا كان التّأصيل لهذه المناهج النّقدية المعاصرة في التّراث العربيّ القديم.

2-3 تأسيس نظريّة نقديّة عربيّة

إنّ الخطاب النّقديّ المغاربيّ المعاصر مطالبٌ اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى بالسّعي قدما نحو التّأسيس لنظريّة نقديّة تُولد من رحم الثّقافة العربيّة قادرة على التّفاعل الفعّال مع الثّقافات الأخرى، وهذا يتمّ من خلال فرز الصّالح من الطّالح من النّظريات النّقديّة الغربيّة ومزجها بتراثه النّقديّ الأصيل، لينتج من ذلك المزيج (الثّقافة العربيّة القديمة، الثّقافة الغربيّة) نقدًا علميًّا منهجيًّا ينسجم مع الحداثة النّقديّة في العالم كلّه، ويحفظ في الوقت ذاته للذّات العربيّة خصوصيّاتها "لذا علينا أن نتّخذ من فعل المساءلة والحوار نهجًا تقوم عليه مختلف الدّراسات، وبذلك ننتقل من مرحلة النّقل والاستهلاك المعرفيّ لنظريّات ومناهج الآخر الغرب إلى الفعل والإنتاج دونما تبعيّة واستلاب"[1].

وبهذا سيراعي هذا النّوع من الانفتاح البنّاء والخلّاق "وضعنا الحضاريّ الرّاهن بكلّ أبعاده وخصوصيّاته، بين تراث قديم من إفراز مرحلة لم يعد لها وجود من جهة، وحضارة غربيّة حديثة تتجاوزنا معطياتها بمراحل كثيرة من جهة أخرى، مما سيعمل دون شك على تمكينها من ميكانيزمات المعرفة المعاصرة ويؤصّل جذورها في تربتنا بعيدًا عن التّبعيّة والاستلاب"[2].

[1] - رقيق سعاد : الخطاب النّقديّ المغاربيّ المعاصر رؤى وتحوّلات، أطروحة دكتوراه، كليّة الآداب واللّغات والفنون ، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة جيلالي لياس، سيدي بلعباس، 2015-2016، ص:107.

[2] - عبد العالي بوطيب: إشكاليّة المنهج في الخطاب النّقديّ العربيّ الحديث، مجلّة عالم الفكر، مج 23، ع 1-2، الكويت، 1994، ص: 465.

حتّى نتمكّن من المشاركة في إنتاج المعرفة النّقديّة بدل أن نبقى دائمًا في الظّل تنتظر ما يجود به علينا الغير من فتات، وإذا ما أردنا الخروج إلى النّور وإنتاج معرفتنا النّقدية بأنفسنا عوض استيرادها فهذا "يتطلّب وسائل وإمكانات، تقوم على مدى إحساسنا بالواقع الّذي نعيشه، ومدى الرّغبة في تغييره، والقدرة على هذا التّغيير، كما تقوم على معرفتنا بالذّات والكيان، وتحديدًا للغايات والأهداف، ونظرتنا الموضوعيّة للآخر في غير قبول أو رفض مسبقين، وتقوم قبل هذا وبعده على الوعي الصّحيح بالعمليّة لفهمها وإدراكها واستيعابها في حقيقتها وعمقها، بعيدًا عن أيّ جدل عقيم"[1] لنهتدي في الأخير إلى حلّ توفيقيّ يتطلّب أمرين اثنين وأوّلهما الرّجوع إلى تراثنا وسبر أغواره، واكتشافه من جديد لحصر العناصر المعرفيّة والمنهجيّة، واستحضار ما هو منها حيّ وملائم لتوظيفه كما هو، أو ما هو قابل للتّطوير قبل التّوظيف، وكذا لاستخلاص ما هو صالح لننطلق منه أو نستوحي أو نستند بعض ما يقوّي فينا قدرة الإبداع أو يفتح أبوابه، وثانيهما: التّفتح بوعي وعمق وحريّة على تراث الغرب ... لاكتساب المقوّمات الّتي أهلّته للتّقدّم، وبدون ذلك الاكتساب سوف نظلّ مجرّد مستهلكين لما تبقى من فتات يلفظه الغير"[2]

4-خاتمة:

في الأخير و بعد هذه الدّراسة المتواضعة للخطاب النّقديّ المغاربيّ يمكن أن تتوّج هذه المداخلة بالنّتائج التّاليّة:

-لم يكن مُتاحًا الحديث قبل السّتينيّات عن نقد منهجيّ ناضج مستوّ على سوقه في المغرب العربيّ، وأقصى ما كان قبل هذه الفترة ردود انطباعيّة وملاحظات تقييميّة ديدنها تصيّد الأخطاء اللّغويّة والبلاغيّة والعروضيّة في النّص المنقود.

-اقترنت نشأة الخطاب النّقديّ المغاربيّ بجملة من المتغيرّات السّوسيو ثقافيّة الّتي شهدتها البلاد المغاربيّة بعد الاستقلال كتأسيس الجامعة والصّحف و المجلّات والنّوادي الأدبيّة والثّقافيّة الّتي ساعدت كلّها على التّرويج لمناهج النّقد السّياقيّ.

[1] - عبّاس الجراري : خطاب المنهج ، منشورات السّفير،ط1، مكناس المغرب، 1990، ص: 31.

[2] - مر.ن، ص: 31.

-الانتقال إلى مناهج النّقد النّسقيّ في الخطاب النقديّ المغاربيّ كان نتيجة حتميّة للإتّصال المباشر للنّقاد المغاربيّين بأساطين النّقد الجديد في باريس سواء بالدّراسة على أيديهم في جامعة السّوربون أو بترجمة مؤلّفاتهم النّقديّة إلى اللّغة العربيّة.

-واقع الخطاب النّقدي المغاربيّ اليوم هو تبعيّة مطلقة وهيمنة مطبقة للنّقد الغربيّ والمأمول منه في قادم الأيّام هو الخروج من عباءة هذا النّقد عن طريق التّأسيس لنظريّة نقديّة عربيّة تنبثق من رحم الثّقافة العربيّة، وقد أثبت الواقع النّقديّ علو كعب النّقد المغربيّ وسموق تجربته النّقديّة، وهذا باعتراف المشارقة أنفسهم.